خصائص المنهج القرآني في البناء عند سيِّد قطب من خلال الظِّلال
دراسة موضوعية

إعداد

محمد أمين حسيني

طالب دكتوراه، قسم القرآن والحديث

أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

الدكتور :مصطفى عبد الله

الأستاذ المشارك بقسم القرآن والحديث، أكاديمية الدراسات الإسلامية

جامعة مالايا، ماليزيا

الدكتورة :منيرة عبد الرَّزاق

قسم القرآن والحديث، أكاديمية الدراسات الإسلامية

جامعة مالايا، ماليزيا

الأستاذ المشارك الدكتور :فؤاد بن أحمد بوالنعمة

قسم الحديث وعلومه، جامعة المدينة العالمية

شاه علم، ماليزيا

ملخص البحث

هَدَفَ هذا البحثُ إلى بيان خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران عند سيِّد قطب من خلال تفسيره في" ظلال القرآن ."

وتكمن مشكلة البحث في أنَّ خصائص منهج القرآن في البناء الإنساني والعمراني كما وردت في تفسير" الظلال "تحتاج إلى استكشاف وإبراز، وذلك من حيث استخراجها وتحديدها وإحصاؤها وشرحها .

وتتمثل أهمية البحث في أنه تناول موضوع خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران عند سيِّد قطب في تفسيره" الظلال"، وذلك من خلال استخراجها وحصرها وشرحها؛ لأن معرفة خصائص المنهج في البناء الإنساني والعمران يساهم مساهمة فعالة في بناء الإنسان وبناء عمرانه وتأهيله للنهوض بالأمانة الكبرى المنوطة به في هذا الوجود .

وقد اعتمد الباحثُ في بحثه هذا: المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي الوصفي، وذلك لتحليل النصوص المجموعة، وملاحظة سياقها، واستنباط خصائص المنهج القرآني وحصرها وتنظيمها.

وقد توصل البحث إلى: أن خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران عند سيِّد قطب سبعة: رباني المصدر، والتدرج في التنزيل، والشمول والتكامل والتوازن، والدوام وصلاحه لكلِّ زمان ومكان، والواقعية، والتيسير، والثبات والمرونة.

كما توصل -أيضًا -إلى أنَّ هذه الخصائص تتمحور بشكل أساسي على الفطرة الإنسانية وترجع إليها.

الكلمات الدلالية: خصائص، المنهج القرآني، الظلال، سيِّد قطب.

Abstract

This research aimed to clarify the characteristics of the Qur'anic approach in building the human and civilization according to Sayyid Quṭub in his Book *Fī Dhilāli al Qurʾān*. The problem statement of this research is that the characteristics of the Qur'anic approach as mentioned in *Fī Dhilāli al Qurʾān* need to be identified, highlighted and analyzed. This study is significant because it identifies and uncovers the characteristics of the Qur'anic approach in building the human and civilization according to Sayyid Quṭub in his *Tafsīr*, which is essential to qualify the human being to fulfill the duties he is assigned with. This research used the inductive and analytical approaches. The findings of the research show that the characteristics of the Qur'anic approach in building human and civilization according to Sayyid Quṭub in his Book *Fī Dhilāli al Qurʾān* consists of seven characteristics, namely: al-*Rabbāniyyah* (divinity), *al-Tadarruj* (gradation), *al-Shumūl* (comprehensiveness), and *al-Tawāzun* (balance, moderation), *al-Dawām* (permanency, continuity), and validity for all times and places, *Wāqiʿiyyah* (realism), *al-Taysīr* (softness, facilitation) and finally *al-Thabāt wa al-Murūnah* (stability and flexibility). These characteristics are fundamentally based on *Fiṭra (*Human instinct).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فمعلوم عند كلِّ أحد أنَّ الله أنزل القرآن الكريم لبناء الإنسان وتأهيله لبناء حضارته وعمرانه، وقد نجح المنهج الذي وضعه القرآن الكريم لتحقيق تلك الغاية، ويمكن ملاحظة ذلك في النجاح الذي حققه في فترات متعددة من الزمن أبرزها جيل الصحابة رضي الله عنهم، ويرجع نجاح هذا المنهج في بناء الإنسان أولًا، ثم تأهيله لبناء الحضارة والعمران إلى خصائص يتميَّز بها عن غيره من المناهج ترجع أساسًا إلى حسن تعامله مع الإنسان ومعرفة مداخله.

ومن المفسرين الذي لهم عناية فائقة بدراسة المنهج القرآني في البناء الإنساني والعمراني: سيِّد قطب في كتابه" في ظلال القرآن"، حيث فصَّل الحديث بشكل جيد عن هذا المنهج على العموم، وخصائصه ومزاياه على وجه الخصوص، ويمكن ملاحظة ذلك في مواضع كثيرة في "تفسيره"، ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث؛ إذ يهدف إلى بيان خصائص المنهج القرآني في البناء عند سيِّد من خلال كتابه" في ظلال القرآن"، وقد قَسَّمْتُ مادة هذه الدراسة إلى (مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة)، وهي كما يلي:

المقدمة: وفيها توطئة للموضوع.

المبحث الأول: الرَّبانية.

المبحث الثاني: التدرج في التنزيل.

المبحث الثالث: الشمول والتكامل والتوازن.

المبحث الرابع: الدوام وصلاحه لكلِّ زمان ومكان.

المبحث الخامس: الواقعية.

المبحث السادس: التيسير.

المبحث السابع: الثبات والمرونة.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث.

إشكالية البحث:

يُجمع المنصفون من النَّاس أن القرآن الكريم قدَّم منهجًا متميزًا وفريدًا من نوعه لبناء الإنسان وحضارته، ويشهد لذلك إنجازاته الباهرة وثمراته المتميزة، وقد تطرق كثير من المفسرين - بين مقل ومُكثر -إلى الحديث عن خصائص هذا المنهج ومميزاته، ومن هؤلاء سيِّد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن"، حيث يشيد بالمنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران، ويعتبره منهجًا متميزًا وفريدًا ليس يدانيه في ذلك منهج آخر، ذلك لما يتمتع به من خصائص ومميزات بَيَّنها في كثير من المناسبات في تفسيره، غير أنَّ خصائص المنهج القرآني هذه وردت في ثنايا تفسيره متفرِّقة ومتناثرة، وتكمن مشكلة البحث في أنَّ خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران تحتاج إلى استكشاف وإبراز، كما وردت في "تفسير الظلال"، وذلك من خلال استنباطها وحصرها، وشرح كلِّ خاصية، وهذا ما يريد الباحث أن يدرسه.

أسئلة البحث:

قد جاء هذا البحث للإجابة عن السؤال التالي:

ما خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران في" تفسير الظلال"؟

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الهدف التالي:

بيان خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان في" تفسير الظلال".

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه يتناول موضوع خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران عند سيِّد قطب في" تفسيره الظلال"، وذلك من خلال استخراجها وحصرها وشرحها؛ لأن معرفة خصائص المنهج في البناء الإنساني والعمران يُساهم مساهمة فعالة في بناء الإنسان وبناء عمرانه، وتأهيله للنهوض بالأمانة الكبرى المنوطة به في هذا الوجود.

المصطلحات والمفاهيم:

الخصائص: جاء في "القاموس المحيط: «"خَصَّهُ بالشيءِ خَصًّا وخُصوصًا وخُصوصِيَّةً[1]، وجاء في «لسان العرب»: "خَصَّهُ بِالشَّيءِ يَخُصُّهُ خَصًّا.. واخْتَصَّهُ: أَفْرَدَهُ بِهِ دُونَ غَيْرِه"[2]. وجاء في «المعجم الوسيط: "(الخُصُوصِيَّةُ) خُصُوصِيَّةُ الشَّيْءِ: خَاصيتُه، و(الخصيصة): الصِّفَةُ التِي تُمَيِّزُ الشَّيءَ وَتُحَدِّدُه. (ج) خَصَائِصُ[3]. فيلاحظ "أن التعريف اللغوي للخصائص يدور حول: الإفراد والفضل والتمييز"[4]

والمقصود بهذا المصطلح في هذا البحث هو المميزات والصفات التي يتميَّز بها المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران.

المنهج: جاء في معجم "مقاييس اللغة" :«النون والهاء والجيم أصلانِ متباينان"، ثم ذكر المعنى الأول فقال: "الأوَّل: النَّهْج، الطَّرِيق. ونَهَج لِي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مُستقيم المِنْهاج. والْمَنْهَج: الطَّرِيق أيضًا، والجمع: المناهج"[5] توجد تعريفات متنوعة للمنهج في الاصطلاح حسب المجال والتخصص الذي استخدمت فيه، كالمنهج التفسيري للمفسر، والمنهج في البحث وغيرها، والمقصود بالمنهج في هذه الدراسة: الطريقة التي يسلكها القرآن الكريم في بناء الإنسان

---

(1) مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت– لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنّشر والتوزيع، ط8، 1426هـ، 2005م)، ص617.

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط1، د. ت)، ج7، ص24.

(3) مادة الكلمة: بنى. إبراهيم مصطفى، أحمد الزّيات، حامد عبد القادر ومحمد النّجار، **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (القاهرة: دار الدعوة، ط1، 1985)، ج1، ص238.

(4) آل عِلاوة، أبو البراء محمد بن عبد المنعم، **السبيل إلى معرفة خصائص النبي صلى الله عليه وسلَّم**، (1436هـ، 2015م). تاريخ: 2017/06/13م
http://www.alukah.net/spotlight/0/89258/#_ftn3

(5) ابن فارس، أحمد بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، 1399هـ، 1979م)، ج5، ص361.

والعمران.

بناء: بنى الشَّيء بنيًا وبناء وبنيانًا: أقام جداره ونحوه، يقال: بنى السَّفينة، ويستعمل مجازًا في معان تدور حول التأسيس والتنمية، يقال: بنى مجده، وبنى الرِّجال: ومن ذلك قول الشَّاعر:

يبني الرِّجال وغيره يَبني القرى *** شتَّان بين قرى وبين رجالِ[1]

وكل شيء صنعته فقد بَنيته[2]، والبنى: نقيض الهدم[3].

والمقصود به في هذا البحث: هو تكوين الإنسان، وتأسيس عمرانه، وتأهيله لأداء وظيفته في الوجود.

والمقصود بخصائص المنهج القرآني في البناء: هي الصفات والمميزات التي تَفَرَّد بها القرآن في عملية بناء الإنسان وتكوينه، وتأسيس حضارته وعمرانه.

الدراسات السابقة:

عند النظر في الدراسات والبحوث التي عنيت بدراسة" الظلال "نجد أن الباحثين لم يتطرقوا إلى بيان خصائص منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان والعمران في هذا التفسير، وإنما كانت جل الدراسات منصبة حول منهجه في التفسير، وحول الجانب الحركي، والإعجاز في تفسيره، وفيما يلي استعراض لبعض الدراسات التي كتبت حول تفسير" في ظلال القرآن":

" .1في ظلال القرآن: دراسة وتقويم"، وهي أطروحة دكتوراه أعدها الشيخ صلاح عبد الفتاح الخالدي، وتفرع عن هذه الدراسة ثلاثة كتب:

أ" -مدخل إلى ظلال القرآن[4]: "تكون هذا الكتاب من تمهيد وسبعة فصول، تحدث

---

(1) إبراهيم مصطفى، أحمد الزّيات، حامد عبد القادر ومحمد النّجار، **المعجم الوسيط**، ج1، ص72.

(2) الزمخشري، جار الله، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1419، 1998)، ج1، ص79.

(3) ابن منظور، **لسان العرب**، ج14، ص89.

(4) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **مدخل إلى ظلال القرآن**، (عمان: دار عمار، ط2، 1421هـ،2000م).

في التمهيد عن المؤلف والكتاب، حيث تناول حياة سيد قطب وصلته بالقرآن قبل" ظلال القرآن"، وتطرق إلى مراحل تأليف" الظلال". واستعرض الفصل الأول من الكتاب كتب التفسير في مصر في العصر الحديث؛ فذكر حوالي ثلاثة عشر تفسيرًا، وفي الفصل الثاني حاول الكشف عن سبب اختيار سيد لعبارة" في ظلال القرآن "عنوانًا لتفسيره، وأما الفصل الثالث فقد عقده للحديث عن أهداف تفسير" الظلال"، وأوصلها إلى ستة عشر هدفًا من أبرزها: إزالة الفجوة بين المسلمين وبين القرآن، وتعريف المسلمين على المهمة العملية الحركية للقرآن. موارد الظلال ومصادره، ووسائل سيد قطب في" الظلال "كانا موضوع الفصل الرابع والخامس. وفي الفصل السادس أشاد بتفسير" الظلال"، وأَكَّد على أنه يمثل نقلة بعيدة في التفسير لمميزات عديدة؛ منها: إبرازه للوحدة الموضوعية للقرآن. وأما الفصل الأخير فقد خصصه لبيان الفروق المنهجية بين طبعتي" الظلال".

ب" -المنهج الحركي في ظلال القرآن[1]: "يتألف هذا الكتاب من بابين، تناول في الباب الأول منهج سيد قطب الحركي في التفسير، وتحدث فيه عن تطور منهجه حسب اهتماماته، وبيَّن نظرية سيد الحركية في التفسير، ثم ذكر بعضًا من قواعد منهجه في التفسير. وأما الباب الثاني فقد خصصه المؤلف للحديث عن طريقة سيد في التفسير؛ عرض فيها طريقته العامة في التفسير مع الإشارة إلى الطريقة التي يراها سيد الطريقة المثلى، كما بين طريقته في الاستنباط والاستدلال والنقاش، وطريقته في عرض بعض موضوعات علوم القرآن، وفي الأخير كشف عن موقف سيد من بعض موضوعات التفسير.

ج" -في ظلال القرآن في الميزان[2]: "هذا الكتاب غرضه وضع سيد قطب في ميزان؛ لبيان ما له وما عليه، والوقوف على ما نُسب إليه من أحكام وإشاعات بغرض تمحيصها ومناقشتها علميًّا لإثباتها أو إبطالها. يتألف الكتاب من تمهيد وسبعة فصول. تضمن التمهيد

([1]) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **المنهج الحركي في ظلال القرآن**، (عمان: دار عمار، ط2، 1421هـ،2000م).

([2]) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **في ظلال القرآن في الميزان**، (عمان: دار عمار، ط2، 1421هـ،2000م).

ضوابط مهمة لتقويم التفاسير، ذكر في الفصل الأول بعض الأخطاء في التعامل مع" الظلال"، وتطرق في الفصل الثاني لعقيدة سيد وبعض القضايا؛ كمنهجه في العقيدة، وموقفه من علم الكلام، وموقفه من صفات الله تعالى، وغيرها من القضايا. وأما الفصل الثالث والرابع والخامس فقد تحدث فيها المؤلف عن مصطلحات إسلامية في" الظلال "وعن سيد وتهمة تكفير المسلمين، وعن نظرته إلى الفقه الإسلامي، وخَصَّص الفصل السادس لإبراز بعض المآخذ على تفسير "الظلال"، في حين خصص الفصل السابع لإبراز بعض سمات ومزايا" الظلال."

تعتبر هذه الدراسة من أوفى الدراسات التي كتبت حول تفسير" الظلال"، حيث سلطت الضوء على عدة جوانب مهمة من هذا التفسير، وبالرغم من كونها بهذه الأهمية إلا أنه يلاحظ عدم تطرقها لخصائص المنهج القرآني للبناء الإنساني والعمراني من خلال" الظلال"، والذي يعتبر موضوعًا ذا أهمية بالغة؛ كون صاحب هذا التفسير اهتم بهذه القضية، وهذا ما سيتكفل الباحث بالقيام به.

د" -معا لم الفكر التربوي عند سيِّد قطب من خلال تفسيره في ظلال القرآن[1]: "سعت هذه المقالة إلى بيان معا لم الفكر التربوي عند سيِّد قطب من خلال تفسيره" في ظلال القرآن"، وقد تطرق الباحث في ثنايا بحثه إلى خصائص المنهج الإسلامي في التربية، كما يراها سيِّد، والمتمثلة في النقاط الآتية: الانطلاق من التصور العقدي، ومخاطبة الفطرة الإنسانية بالآيات الكونية، وتنظيم دوافع الفطرة وعدم محاربتها، واعتماد أسلوب التربية بالعمل والممارسة والتجريب، وتوجيه المسلمين إلى الانفتاح على الخبرات النافعة، والتدرج في معالجة السلوكيات المنحرفة. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج مهمة، لبعضها تعلق وصلة بخصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان، والتي هي موضوع هذا البحث، ويتمثل ذلك في النتيجة التالية: "أبرزت الدراسة الإعجاز التربوي في المنهج الإسلامي، والذي تجسد من خلال توافقه مع الفطرة الإنسانية وتقديره

(1) أبو دف، محمود خليل، **معالم الفكر التربوي عند سيِّد قطب من خلال تفسيره في ظلال القرآن**، (غزّة: الجامعة الإسلامية، 1423هـ، 2002م).

لحاجاتها ودوافعها، وحرصه على توجيهها نحو الخير، وتركيزه على الأساليب العملية في التربية من خلال دعوة الإنسان إلى التأمل في الآيات الكونية، وحثّه على الملاحظة والممارسة والتجريب، ودعوته إلى الانفتاح على خبرات الآخرين النافعة مما يعني تقديم خبرات تربوية مباشرة وغير مباشرة تثري المعرفة الإنسانية". تعتبر هذه الدراسة جيدة في بيان معالم الفكر التربوي عند سيِّد من خلال تفسيره في" ظلال القرآن"، وهذه المعالم مهمة جدًّا في قضية بناء الإنسان من الجانب التربوي، وعلى الرغم من أنها تطرقت إلى بعض خصائص المنهج القرآني في البناء من خلال "الظلال "إلا أنها قليلة، وتحتاج إلى استقراء وتفصيل، كما أن بعض ما ورد في تلك الخصائص يندرج في باب الوسائل والآليات، ولا يمكن اعتباره خاصية؛ كنقطة توجيه المسلمين إلى الانفتاح على خبرات الآخرين، وإضافة إلى ذلك يمكن دمج العنصرين: "مخاطبة الفطرة الإنسانية بالآيات الكونية، وتنظيم دوافع الفطرة وعدم محاربتها "تحت عنصر مراعاة الفطرة، وعلى العموم فإن هدف هذه الدراسة لم يكن بيان خصائص المنهج القرآني في البناء من خلال" الظلال"، ولذلك لم تولها عناية كبيرة، ومع ذلك فإن الباحث سيستفيد منها ويزيد عليها.

هـ" -معالم التغيير لدى سيِّد قطب من خلال كتاباته[1]: "سعى هذا البحث إلى إبراز معالم التغيير لدى سيِّد قطب من خلال كتاباته، ومن القضايا التي تطرق لها الباحث في بحثه هذا: خصائصُ المنهج الإسلامي في التغيير، حيث ذكر أنه خاضع للسنن الكونية، وأنه عملية تربوية إنسانية، وأنه قائم على التدافع، وأنه يتسم بالتوازن، وقائم على التدرج في التغيير. يلاحظ أنَّ هذا البحث يتناول التغيير عند سيد قطب من خلال مجموعة من كتاباته، وليس من خلال تفسير" الظلال "فقط، أما الدراسة الحالية فتتناول خصائص المنهج القرآني في البناء من خلال تفسير" الظلال"، والفرق بيِّن وواضح بين الموضوعين، وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر الباحث عددًا من الخصائص التي يتميز بها المنهج الإسلامي في التغيير، والتي تتقاطع في بعض جوانبها مع

(1) القيق، وجيه صبح محمود، **معالم التغيير عند سيِّد قطب من خلال كتاباته**، (غزّة: الجامعة الإسلامية، 1427هـ، 2006م).

خصائص المنهج القرآني في البناء، لكن بالنظر إلى تلك الخصائص يمكن ملاحظة أن بعضها خاص بالتغيير فقط، ككون التغيير قائمًا على التدافع، وكونه خاضعًا للسنن الكونية، أما الخصائص الأخرى فلبعضها تعلق بخصائص المنهج القرآني في البناء، غير أنَّ بعضها يحتاج إلى توضيح أكثر كخاصية التوازن، حيث يعتريها بعض الغموض في كونها خاصية لهذا المنهج، كما أن الباحث أدرج خاصية الواقعية تحت خاصية التدرج، وكان الأولى به أن يجعلها مستقلة بذاتها. فضلًا عن كونه لم يتطرق لجميع الخصائص والتي تزيد عما ذكره، وعلى العموم فإن الباحث سيفيد من بعض ما ورد في هذه الخصائص، ويزيد عليها.

و" -خصائص التصور الإسلامي ومقوماته[1]: "تحدث سيِّد في كتابه هذا عن طبيعة التصور الإسلامي وخصائصه ومميزاته ومقوماته فيما يتعلق بالله والكون والحياة والإنسان، وبيَّن ضرورة معرفة طبيعة هذا التصور لأسباب عديدة على رأسها أنه يكفل للإنسان أن يكون فردًا صالحًا وقادرًا على أداء وظيفته في هذا الوجود. وذكر أنَّ للتصور الإسلامي خصائصَ هي التي تميزه عن غيره من التصورات، وتكسبه صفة التفرد، وتجعله مستقل الشخصية. كما بيَّن في كتابه هذا أنَّه على الرغم من تعدد خصائص التصور الإسلامي وتنوعها؛ كالواقعية والشمول والتوازن، إلا أنها ترجع في النهاية إلى خاصية واحدة تندرج تحتها وتنبثق منها، وهي خاصية الربانية. الفرق الجوهري بين هذا الكتاب والدراسة الحالية يتجلى في أنَّ مادة هذه الدراسة تم استخراجها من كتابه الآخر" في ظلال القرآن"، فهو ليس تكرارًا لما ورد في كتاب" خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"، ومع ذلك يلاحظ أنَّ سيِّدًا ذكر خصائص لم ترد في هذه الدراسة وهما(الإيجابية والتوحيد)، ويرى الباحث أنَّهما لا يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بخصائص المنهج القرآني في البناء، بل هما إلى مقومات التصور الإسلامي أقرب، وفي المقابل وردت في هذه الدراسة خاصيتان لم تَرِدَا في كتابه الآخر، وهما التيسير والتدرج، كما جعل الشمول والتوازن خاصيتين مستقلتين، على الرغم من أنه أشار إلى أنهما متصلتان ببعضهما، في حين أن الباحث في هذه الدراسة جعلهما خاصية

([1]) قطب، سيد، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، (القاهرة: دار الشّروق، 1997م).

واحدة. ومن الفروق بين هاتين الدراستين: طريقة عرض الخصائص، وتنوع الأمثلة، كما تميزت هذه الدراسة بربط تلك الخصائص المستنبطة من تفسير" الظلال "بقضية البناء ربطًا مباشرًا.

وهناك دراسات أخرى اعتنت بتفسير" الظلال"، غير أنه لا علاقة لها ببناء الإنسان والعمران؛ نذكر بعضًا منها لبيان تنوع الدراسات حول هذا التفسير، منها على سبيل المثال:

" .1الإعجاز العلمي في تفسير(في ظلال القرآن)؛ دراسة ونقد"، للباحث: مصطفى عمار عبد الغفار الششاوي.

" .2سيد قطب ومنهجه في تفسيره(الظلال)، دراسة وتحليل"، للباحث: قاضي خليل.

" .3الخصائص الأدبية في تفسير سيد قطب"، للباحث: عبد الوهاب خالد.

" .4منهج سيد قطب في ظلال القرآن"، للباحثة: أسماء بنت عمر حسن فدعق.

" .5التجديد في منهجية التفسير بين الزمخشري وسيد قطب"، للباحث: محمد رفعت زنجير.

" .6الحاكمية في ظلال القرآني الكريم"، للباحث: عبد الحميد عمر عبد الحميد عبد الواحد.

" .7الحاكمية في كتاب(في ظلال القرآن) لسيد قطب: دراسة تحليلية"، للباحث: علي إبراهيم صالح.

" .8في ظلال القرآن لسيد قطب؛ دراسة منهجية"، للباحث: نور محمد عثماني.

" .9في ظلال القرآن لسيد قطب؛ دراسة أدبية"، للباحث: أحمد السعيد شلبي.

" .10المقاييس البلاغية في كتاب(ظلال القرآن) لسيد قطب: استقصاء وتأصيل"، للباحث: صلاح محمود علي شحاته.

فهذه عينة متنوعة من الدراسات التي كتبت حول تفسير" الظلال"، ويلاحظ أنه لا توجد دراسة عنيت بخصائص منهج القرآن في بناء الإنسان والعمران من خلال" الظلال"، وكما سبقت الإشارة من قبل فإن تفسير" الظلال "يحتوي مادة علمية متعلقة بخصائص المنهج القرآني لبناء الإنسان والعمران، ولذلك فإن الباحث سيقوم بتجميع هذه المادة العلمية الثرية المتناثرة في

تفسير سيد قطب، ثم سيقوم بحصرها وتنظيمها قصد إخراجها في حُلَّة متكاملة متناسقة؛ ليتضح جليًّا خصائص منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان والعمران عند سيد؛ ليسهل الاستفادة منها.

منهج البحث:

قد اعتمد الباحثُ في بحثه هذا:

المنهج الاستقرائي: وذلك لتتبع وجمع النصوص التي تخصَّصت في الحديث عن خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران في تفسير" الظلال."

المنهج التحليلي الوصفي: وذلك لتحليل النصوص المجموعة، وملاحظة سياقها، واستنباط خصائص المنهج القرآني، وحصرها وتنظيمها.

حدود البحث:

هذه الدراسة سوف تكون مقتصرة في استنباط خصائص المنهج القرآني في البناء الإنساني والعمراني عند سيِّد قطب على تفسيره" في ظلال القرآن "فقط.

أدوات البحث:

سيجمع الباحث النصوص التي تطرق فيها سيِّد إلى خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران من خلال تفسيره" الظلال"، فهذا التفسير هو المصدر الأساسي لهذا البحث.

المبحث الأول: الربانية: يقصد به أنَّ هذا المنهج القرآني مصدره هو الله عز وجلّ، هو من وَضَعَه وارتضاه ليبني الإنسان والعمران، ويؤهله للقيام بدور الاستخلاف في الوجود؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء:174]. ولما كان من وضع الله عزّ وجلّ مدبِّر الكون وخالق الإنسان وصاحب العِلم والإدراك المطلق فإنه - لا محالة -المنهج الأصلح للإنسان والأنجع في بنائه وبناء عمرانه[1]. وكلُّ مَن يطلع على هذا المنهج والهدف الذي يرمي إليه وما جاء به في كلِّ المجالات والجوانب، والطريقة التي يعمل بها في البناء سواء على مستوى الإنسان أو على مستوى العمران -يُدرك حقيقة الإدراك أنَّه منهج ربَّاني ليس للبشر فيه يد ولا صلة لهم بوضعه، ولا يجادل في هذا إلا جاهل غير قادر على التمييز، أو صاحب طوية سيئة يكابر الحقَّ[2].

ويؤكد سيِّد أنَّ خاصية الربانية تقوم على أمرين رئيسين: وهما العلم الشامل المحيط بما كان وما هو كائن وما سيكون. والعلم بالمخلوق كله، والحكمة المدركة لما يصلح له ويناسبه، وعدم التأثر بالقصور والجهل واتباع الهوى، وهذا ليس بمقدور لأحد إلا الله عز وجلَّ، وبالتالي فهو وحده الأقدر على وضع منهج للإنسان في ذاته وفي شتى نواحي حياته، وليس لأحد غيره أن يضع هذا المنهج، وفي المقابل فإن الإنسان يتميَّز بعكس الصفات السابقة تمامًا، فعلمه محدود وإدراكه للحكمة محدود ونسبي وظرفي، كما أنه يتأثر بالجهل والقصور، ويتأثر بالهوى، وبالتالي فلا قدرة له على صياغة المنهج الذي يكفل بناء نفسه وبناء عمرانه،" فالأمر في هذا المنهج الإلهي كله هو قَبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل والحكمة المدركة البصيرة... هذه الخصائص الإلهية التي يفقدها الإنسان، فلا يصلح بعدها أبدًا لوضع المنهج الأساسي لحياة الإنسان"[3]!

([1]) قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشّروق، ط40، 1434هـ، 2013م). ج3، ص1771. القرضاوي، يوسف، **الخصائص العامة للإسلام**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404هـ، 1983م)، ص36. قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص46.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص49.

([3]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص216، 217. ج2، ص619. قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**،

ويزيد سيِّد تفصيلًا في جزئية أنَّ المنهج الذي يضعه الإنسان مهما روعي فيه الإبداع والإتقان، فإنه سيبقى قاصرًا وناقصًا ومتناقضًا، بل إنَّ ضرره أكثر من نفعه، وذلك بسبب القصور الذي جُبل عليه الإنسان، على عكس المنهج الذي يضعه الله عز وجلَّ المتصف بجميع صفات الكمال، وفي ذلك يقول: "وإذا كان الفارق بين صنعة اللّه وصنعة الإنسان واضحًا كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني، فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع. فما مِن نظرية بشرية، وما من مذهب بشري، إلا وهو يحمل الطابع البشري.. جزئية النظر والرؤية.. والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية.. وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوِّناتها -إن عاجلًا وإن آجلًا -كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة التي لم يحسب حساب بعضها، أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها.. إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف، الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود، ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة -في أية لحظة حاضرة !وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل"[1]. ويجمع ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:82].

ويؤكد في موضع آخر حقيقة أنَّ الذي يضع المنهج والخطة هو الله وحده، وأن ذلك ليس من حق الإنسان؛ لافتقاره إلى العلم الشامل والكامل، وفي ذلك يقول: "إنَّ الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله، هو الذي يدرك الطريق كله. والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق. بل هو محجوب عن اللحظة التالية. ودونه ودونها سِتر مُسبل لا يباح لبشر أن يطلع وراءه !فأنَّى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟ !إنه إمَّا الخبط والضلال والشرود. وإما العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود. منهج الرسالات. ومنهج الرسل. ومنهج الفطر الموصولة

ص47.

[1] قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص 722.

بالوجود وخالق الوجود"[1]، وتبرز آثار الربانية في المنهج القرآني في البناء في أنها تصوغ منهجًا مبرَّءًا" من القصور والنقص، ومن آثار الجهل والعجز"[2]، فيحسن تحديد حاجات الإنسان واستعداداته، ثمَّ يضع ما يلبي تلك الحاجات والاستعدادات في تناسق مطلق وتكامل، مُنزه عن التناقض والاختلاف والتحيز والهوى[3].

المبحث الثاني: التدرج في التنزيل، ومراعاة الظروف والإمكانيات:

يرى سيِّد أن المنهج القرآني جاء ليؤسس لميلاد الإنسان، ويغيِّر تصوراته ومفاهيمه حول خالقه وحول ذاته والكون، ويترقى به من طور إلى طور على جميع المستويات والجوانب، وهذه العملية تستلزم وقتًا وتدرجًا في البناء، ومراعاة للظروف، واستعداد هذا الإنسان وحاجاته، حيث إن التغيير لا يحصل بين عشيَّة وضحاها، وهذا الأمر غاب عن الكفار؛ فلذلك استنكروا نزوله متفرقًا، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان:32]. فلهذا اعتمد المنهج القرآني عند بنائه للإنسان على التدرج، ومن هنا يمكن فهم الحكمة من وراء نزول القرآن الكريم منجمًا ومتفرقًا وذلك حتى يلبي حاجات الجماعة المسلمة ويوجهها في كل مرحلة من مراحل نشأتها. وعلى صعيد آخر، فإن المنهج القرآني جاء ليطبَّقَ ويُنَفَّذَ في أرض الواقع، لا ليكون رصيدًا ثقافيًّا ومعرفيًّا يتلذذ الإنسان بقراءته ومطالعته، ولكي يسهل على الإنسان تطبيق المنهج القرآني، فقد سلك سبيل التدرج مراعاة لقدرة الإنسان واستعداداته، وهذا أدعى لقبوله وقدرته على تنفيذه وتطبيقه، ولو سلك المنهج القرآني سبيلًا غير التدرج لوجد فيه الإنسان صعوبة ومشقة بالغتين، وبالتالي فإنه سينفر منه الإنسان[4].

وتتجلى خاصية التدرج في البناء القرآني للإنسان والعمران في مظاهر كثيرة كالعقيدة والتشريعات، نذكر بعضا منها:

([1]) المرجع نفسه، ج1، ص281.

([2]) المرجع نفسه، ج3، ص1784، 1785.

([3]) القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص48، 50.

([4]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج5، ص2562، 2563.

العقيدة: حيث ركز المنهج القرآني على بناء العقيدة في نفوس الناس باعتبارها القضية الأساسية والكبرى التي يقوم عليها كلُّ شيء، وذلك خلال الفترة المكية كلّها، والتي امتدت ثلاث عشرة سنة، فلمَّا علم الله أن قضية العقيدة قد استقرت في نفوسهم استقرارًا ثابتًا ومكينًا، تجاوزها إلى التفريعات الأخرى التي تقوم أساسًا عليها مما له علاقة بنظام الحياة وجوانبها المختلفة[1].

وتبدو الحكمة جلية وراء هذا التدرج؛ فالعقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه الجوانب الأخرى الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فمتانة البناء العقدي مهم جدًّا؛ لأن بقية البناء يقوم عليه تلقائيًّا، فلذلك حرص المنهج القرآني على تثبيت هذا الأساس، واستغرق فيه وقتًا طويلًا ليضمن صلابته ومتانته، ويتجلى ذلك في فِعل النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء، حيث كان تركيزهم في بدايات دعواتهم على هذا الجانب[2].

التشريعات: فلقد عرفت الكثير من التشريعات تدرجًا في "علاج النفوس والأوضاع، وتغيير الواقع في حدود الطاقة والملابسات القائمة كذلك، حتى ينتهي إلى تغييره نهائيًّا، وإقامة "واقع آخر جديد"[3]، ولذلك أمثلة كثيرة نذكر منها:

عقوبة الزِّنا: حيث تمَّ تعديل عقوبة الفاحشة بحسب الفترات والظروف، فعقوبة هذه الفاحشة في الفترة المكية تختلف عنها في فترة المدينة، فلم يكن للمنهج القرآني في مكة سلطة ولا قوة ولا دولة قائمة، فاكتفى بالنهي عن الزنا وتوجيه المسلمين إلى الابتعاد عنه في العديد من السور المكية؛ قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:32]، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون:1] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ

---

(1) المرجع نفسه، ج2، ص1004، 1005.

(2) محمد نصير، آمنة، **إنسانية الإنسان في الإسلام**، (القاهرة: دار الشروق، 1409، 1989)، ص35. العماري، علي محمد حسن، **من حديث القرآن عن الإنسان**، سلسة دعوة الحق العدد 22، (1409هـ، 1989م)، ص102.

(3) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص775.

فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون:2] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ [المؤمنون:3] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ [المؤمنون:4] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ [المؤمنون:5] ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ [المؤمنون:6] ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ [المؤمنون:7]، وغيرها من الآيات المكية التي اكتفت بتشنيع هذه العقوبة، فلمَّا قامت للمسلمين دولة في المدينة شرعت عقوبة الزِّنا على النحو الذي استقرت عليها في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية[1].

الخمر: ومن أبرز الأمثلة التي تتضح فيها بجلاء: خاصية التدرج في المنهج القرآني في البناء قضية الخمر، والتي كانت متغلغلة بشدَّة في المجتمع الجاهلي إلى جانب الميسر، وتتعلق بها عادات اجتماعية ومصالح اقتصادية، ولمكافحة هذه الآفة وعلاجها اعتمد المنهج القرآني على خاصية التدرج، وذلك ببضع آيات من القرآن الكريم وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة[2].

"كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:67]، فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع السكر(وهو المخمر) في مقابل الرزق الحسن.. فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر. ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة:219]. وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع. إذ أنه قَلَّما يخلو شيء من نفع، ولكن حِله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع. ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:43]. والصلاة في خمسة

([1]) المرجع نفسه، ج1، ص601.

([2]) المرجع نفسه، ج2، 663. القيق، **معالم التغيير عند سيِّد قطب من خلال كتاباته**، ص199.

أوقات معظمها متقارب، ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة. وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب -وخاصة عادة الصبوح في الصباح، والغبوق بعد العصر أو المغرب، كما كانت عادة الجاهليين -وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي. وفيه -وهو أمر له وزنه في نفس المسلم -ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها !ثم كانت هذه الرابعة الحاسمة والأخيرة[1]، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤًا كاملًا، فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان"[2].

وبخاصية التدرج هذه نجح المنهج القرآني في علاج هذه الآفة المستحكمة في النفوس، كما نجح في تغيير الكثير من الأوضاع والأحوال بسبب إعداد الإنسان نفسيًّا وذهنيًّا، ومراعاته لطاقاته واستعداداته ومختلف الظروف والملابسات المحيطة به[3].

المبحث الثالث: الشمول والتكامل والتوازن:

يتميز المنهج القرآني بأنه شامل ومتكامل ومتوازن، فهو يشمل الإنسان كلّه بمختلف ظروفه وملابساته؛ فردًا وجماعة، ويشمل مجالاته الدينية والدنيوية على حدٍّ سواء، كما لا يميل إلى جهة على حساب جهة، وإنما يربط بينها في توازن وتكامل محكم التناسق، قال سيِّد: "وهكذا نجد هذه الأمور المتعددة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ناشئًا من طبيعة هذا الدين، الذي لا تنفصل فيه الشعائر التعبدية عن المشاعر القلبية عن التشريعات التنظيمية، ولا يستقيم إلا بأن يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة، وشئون القلب وشئون العلاقات الاجتماعية والدولية، وإلا أن يشرف على الحياة كلها؛ فيُصرفها وفق تصور واحد متكامل، ومنهج واحد متناسق، ونظام واحد شامل،

([1]) يشير إلى الآيتين في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 90، 91].

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، 974، 975.

([3]) المرجع نفسه، ج2، 663. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص181.

وأداة واحدة هي هذا النظام الخاص الذي يقوم على شريعة اللّه في كافة الشئون"[1]، فالمنهج القرآني يتعامل مع الإنسان كلِّه، يتعامل معه في مختلف جوانبه وفي كلِّ جزئية من جزئيات حياته وشئونه، فلا يفرق المنهج القرآني بين الاعتقاد والصلاة والأخلاق وشرائع الحياة وأوضاعها[2].

ولهذا الشمول والتكامل في المنهج القرآني مظاهر عديدة، نذكر منها:

التوازن والتكامل بين مقتضيات الحياة وعزلة الروح: كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة:10] ففي هذه الآية دلالة واضحة على التوازن الذي هو سمة للمنهج القرآني في البناء؛ حيث يوازن بين مقتضيات الحياة وضرورياتها المتعددة والمختلفة من طلب الرزق والعمل والكسب، وبين اتصال الروح والقلب بالله عز وجلَّ والانقطاع لذكره والانعزال عن جو العمل والكسب في بعض الفترات، إذ إن هذا الاتصال يعتبر ضروريًّا للنهوض بأعباء الدوري الوظيفي. فلم يفصل المنهج القرآني بين هذين الجانبين المهمين في حياة الإنسان، ولكن أعطى كلَّ جانب حقه[3].

يشمل الضمير البشري والحياة الواقعية ويوازن بينهما: "والتربية والتشريع في المنهج الإسلامي متلازمان أو متداخلان أو متكاملان.. فالتشريع منظور فيه إلى التربية، كما هو منظور فيه إلى تنظيم شئون الحياة الواقعية، والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر، كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع، وانبعاث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع وتحقق المصلحة فيه. والتشريع والتوجيه المصاحب منظور فيهما -معًا -إلى ربط القلب بالله، وإشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه.. وهذه هي خاصية المنهج الرباني

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص179. الأشقر، عمر سليمان، **خصائص الشريعة الإسلامية**، (الكويت: مكتبة الفلاح، 1982). ص51.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص 400، ج4، ص1919. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص108، 111. قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص113، 114.

([3]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج6، ص 3570. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص140 وما بعدها.

للحياة البشرية.. هذا التكامل الذي يصلح الحياة الواقعية، ويصلح الضمير البشري في ذات الأوان"[1]. فالمنهج القرآني يعلم تركيبة الإنسان وخصائصه، فلذلك يعامله وفق هذا التوازن والتكامل، الذي يُلبي حاجياته على مستوى الواقع وعلى مستوى المشاعر[2].

الجمع بين النظرية والتطبيق: ومن مظاهر الشمول والتكامل في المنهج القرآني جمعه بين النظرية والتطبيق، فهو حين يريد بناء الإنسان لا يكتفي بالكلام والتنظير والتوجيه فحسب، بل يتبعها بالأمور العملية والإجراءات التطبيقية التي تضمن تحقق الثمار، وذلك مثل تحريمه للزنا؛ فقد وردت آيات كثيرة تنهى عن الزِّنا وتبين شناعته؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:32] غير أن الله عز وجل يعلم أن هذه التوجيهات والنواهي وحدها لا تكفي في الحدِّ من هذه الكبيرة، ولا تكفي لصيانة المجتمع، فلذلك شَرع العقوبات الرَّدعية لهذه الجريمة[3].

(1) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص 638.

(2) المرجع نفسه، ج3، ص 1518.

(3) المرجع نفسه، ج1، ص 532، 533، 601.

المبحث الرابع: الدوام وصلاحه لكل زمان ومكان:

يرى سيِّد أنَّ المنهج القرآني ثابت ومستقر، وقادر على بناء الإنسان فردًا وجماعة في كلِّ وقت وفي كلِّ مكان وفي كلِّ جيل[1]؛ لأنه يحتوي على الحقائق الدائمة والمبادئ الكلية والقيم الأصيلة والرَّصيد الصالح الذي ينفع في كلِّ حال[2]. وكون المنهج القرآني آخر منهج يضعه الله عز وجل لعباده في الأرض- فلا منهج بعده- اقتضى أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان[3].

ويرجع سرُّ قدرة هذا المنهج على العمل في كلِّ حال إلى كونه يراعي الإنسان بكلِّ خصائصه: "فالمنهج الإلهي -كما يبدو في» ظلال القرآن -«موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة.. وهو موضوع لهذا الإنسان الذي يعيش في هذه الأرض، آخذ في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته وقوته وضعفه وحالاته المتغيرة التي تعتريه.. سواء وهو فرد، أو وهو عضو في جماعة"[4].

ويزعم بعض النَّاس أنَّه لا بُد من استبدال المنهج القرآني بمنهج آخر جديد لبناء الإنسان وعمرانه، بحجة أن المنهج القرآني لا يتماشى مع المستجدات، فهو غير قادر على تلبية حاجات الإنسان، يردُّ سيِّد على هذا الزعم بأن الإنسان الذي وُضع له هذا المنهج بقي هو بخصائصه وفطرته لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، وكذلك المنهج فإنه ثابت لم يتغيَّر، فهو يتعامل مع أصل فطرة الإنسان وهي لا تتغير، فلا حاجة إذًا إلى منهج جديد، وفي ذلك يقول: "والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية، وما يزال هو هو. فالإنسان ما يزال هو هو كذلك. ما يزال هو هو في حقيقته وفي أصل فطرته. وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان-فيمن خاطبهم الله به. خطاب لا يتغير؛ لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقًا آخر، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت مِن حوله، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هذه الظروف والملابسات.. والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل

---

(1) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص275. الأشقر، **خصائص الشريعة الإسلامية**، ص49.

(2) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص 467، ج3، ص1482.

(3) المرجع نفسه، ج3، ص1379.

(4) المرجع نفسه، ج1، ص13، 14.

فيها ولا تغيير، ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدًا؛ لأنه معد لهذا، بما أنه خطاب الله الأخير، وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل"[1].

ويعزز سيِّد رأيه هذا بأن التطورات التي طرأت -وستطرأ -على الحياة كانت محسوبة في المنهج القرآني الأخير الذي وضعه الله عز وجل، وبالتالي فهو يحتوي جميع الإمكانيات التي تسع تلك التطورات على مر الأزمنة: "إن تطور الحياة في ظل هذا المنهج لا يعني مجافاتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع، ولكن يعني أن طبيعة المنهج تحتوي كل الإمكانيات التي تسع ذلك التطور بلا خروج على أصل أو فرع. ويعني: أن كل تطور في الحياة كان محسوبًا حسابه في ذلك المنهج؛ لأن اللّه -سبحانه - لم يكن يخفى عليه -وهو يضع هذا المنهج في صورته الأخيرة، ويعلن إكماله وارتضاءه للناس دينًا -أن هناك تطورات ستقع، وأن هناك حاجات ستبرز، وأن هناك مقتضيات ستتطلبها هذه التطورات والحاجات. فلا بد إذًا أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جميعًا.. وما قدر الله حق قدره مَن يظن غير هذا في أمر من هذه الأمور.."[2].

يرى سيِّد أنَّ الأُمَّة المعاصرة -وجميع أمة -في حاجة إلى المنهج القرآني وتوجيهاته تمامًا كما كانت الجماعة المسلمة الأولى في حاجة إليه، تحتاجه ليبني تصورها، ويؤسس موقفها مما يحيط بها من الكون والناس، وليحدد لها معا لم الطريق واضحة جلية. كما تحتاج المنهج القرآني في خوض معركتها مع أعدائها، لأنَّ المعركة التي تخوضها الأمة -الآن -هي نفس المعركة التي خاضتها الجماعة المسلمة الأولى من قبل، وإن أعداءها نفس الأعداء الذين واجههم المنهج القرآني وحَذَّر منهم، وكشف مكرهم وكيدهم ووسائلهم، حتى وإن اختلفت في الشكل والمظهر، إلا أنَّ حقيقتها تبقى لا تتغير[3].

وهذا كله يؤكِّد أن المنهج القرآني صالح للبناء في كلِّ زمان ومكان، وتغيُّر الظروف

---

(1) المرجع نفسه، ج1، ص349. الأشقر، **خصائص الشريعة الإسلامية**، ص47، 60. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص217.

(2) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ج2، ص833. الأشقر، **خصائص الشريعة الإسلامية**، ص62.

(3) قطب، **في ظلال القرآن**، ص124.

والملابسات والأزمنة والأمكنة ليس من شأنه أن يُعَطِّل فعالية المنهج القرآني في بناء الإنسان فردًا وجماعة، وفي كلِّ مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

المبحث الخامس: الواقعية:

يرى سيِّد أنَّ المنهج القرآني في البناء يتميَّز بالواقعية المثالية، أو المثالية الواقعية، ذلك أنَّه - حين يتعامل مع الإنسان -يأخذ بعين الاعتبار واقعه من كلِّ جوانبه وزواياه وملابساته، كما لا يغفل طبيعة الإنسان وفطرته وتكوينه وحدوده وقدراته، فهو يتعامل مع إنسان لا مع مَلَك أو شيطان أو حيوان، أو حَجَر أو كائن آخر؛ إنسان له ميوله ونزعاته، وفيه نقائص وضعف، والمنهج القرآني يلاحظ كلَّ هذا، ويأخذه بعين الاعتبار، فلذلك لا يجبره على فعل أو ترك ما يعجز عن فعله أو تركه. وكلُّ ما يطلبه منه داخل في طاقته وقدرته[1].

يقول سيِّد عن المنهج القرآني بأنه: "نظام للإنسان نظام واقعي إيجابي يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان، وشتى الأحوال. إنه نظام واقعي إيجابي يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه، ومن موقفه الذي هو عليه؛ ليرتفع به في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة في غير إنكار لفطرته أو تنكر، وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف"[2]!

ومن الأمثلة التي يضربها سيد عن واقعية المنهج القرآني في البناء ومراعاته لطبيعة الإنسان وفطرته وخصائصه: أنه حين شرع العقوبات الصارمة لجريمة الزنا لم يكن يسعى إلى إيقاف أو محاربة الدوافع الغريزية الفطرية الكائنة في الإنسان، والميول التي ركبها الله في كيانه، فهو يعلم تمام العلم أنه لا حيلة له في دفع هذه الغرائز والميول، ولا خير له في كبتها أو قتلها؛ فلذلك حرَّم الرهبانية، بل هي وظائف طبيعية يتوقف عليها إعمار الأرض وامتداد الحياة. لكن المنهج القرآني كان يسعى إلى تنظيمها وتطهيرها، وإقامتها على أساس من المشاعر الراقية، ويرتقي بها عن

([1]) المرجع نفسه، ج1، ص238، 239، 344، 345، ج2، ص769. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص158. قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص169، 181، 182، 183.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1،ج1، ص579.

"الحيوانية التي لا تفرق بين جَسد وجسد"، أو لا تسعى إلى تأسيس بيت، والتي يترتب عنها أضرار اجتماعية كثيرة؛ كاختلاط الأنساب، وتهديد استقرار البيوت. فلهذا شَدَّد العقوبة على فاحشة الزنا. وهكذا يتبين أن المنهج القرآني لا يحارب الدوافع الفطرية، وإنما يهذبها وينظمها حتى يحافظ على الأهداف الراقية التي تثمرها الحياة الزوجية[1].

ومن الأمثلة على واقعية المنهج القرآني في التعامل مع الإنسان: قضية الميل الذي يجده الرجل نحو إحدى زوجاته، فقد أقرَّ المنهج القرآني الميل القلبي ولم يؤاخذه عليه؛ لأنه من صميم فطرته، بل أعلمه أنه لن يستطيع العدل ولو حرص على ذلك؛ قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء:129]. غير أنه طالبه بالعدل الظاهري وحاسبه عليه، يقول سيِّد: "إن الله الذي فطر النفس البشرية يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها. ومِن ثم أعطاها لهذه الميول خطامًا. خطامًا لينظم حركتها فقط، لا ليعدمها ويقتلها !من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات، ويؤثرها على الأخريات. فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات. وهذا ميل لا حيلة له فيه، ولا يملك محوه أو قتله.. فماذا؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه، ولا يجعل هذا إثمًا يعاقبه عليه؛ فيدعه موزعًا بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه !بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء -ولو حرصوا -لأن الأمر خارج عن إرادتهم.. ولكن هنالك ما هو داخل في إرادتهم. هناك العدل في المعاملة. العدل في القسمة. العدل في النفقة. العدل في الحقوق الزوجية كلها، حتى الابتسامة في الوجه، والكلمة الطيبة باللسان.. وهذا ما هم مطالبون به. هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل؛ لينظمه لا ليقتله! ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ فهذا هو المنهي عنه. الميل في المعاملة الظاهرة، والميل الذي يحرم الأخرى حقوقها فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة.. ومعه الهتاف المؤثر العميق في النفوس المؤمنة والتجاوز عما ليس

[1] المرجع نفسه، ج4، ص2489.

في طاقة الإنسان[1].

ولا ينبغي أن يفهم من واقعية المنهج القرآني بأنه منهج يرضخ لطبيعة الإنسان وفطرته وغرائزه، فيتركه يتدنى في الحضيض والوحل بحجة مراعاة واقع الإنسان وفطرته، بل هي واقعية إيجابية، المقصود منها أنه يرتفع بالإنسان -كما هو بتركيبته ونقائصه -ويقوده قيادة واقعية تراعي -تلك التركيبة -وترتقي به إلى القمة، فهو منهج يتعامل مع الإنسان أنه إنسان لا أقل ولا أكثر[2].

يقول سيِّد: "إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله. فهو يحاول -بكل وسائله المؤثرة -أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها وفطرتها.. ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة، ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها، ولا يقول للناس: اضربوا رءوسكم في الحائط، فأنا أريد منكم كذا والسلام !سواء كنتم تستطيعونه أو لا تستطيعونه !إنه لا يهتف للنفس البشرية لتبقى على ضعفها وقصورها، ولا ينشد لها أناشيد التمجيد وهي تتلبط في الوحل، وتتمرغ في الطين -بحجة أن هذا واقع هذه النفس !ولكنه كذلك لا يعلقها من رقبتها في حبل بالملأ الأعلى، ويدعها تتأرجح في الهواء؛ لأن قدميها غير مستقرتين على الأرض. بحجة الرفعة والتسامي !إنه الوسط.. إنه الفطرة.. إنه المثالية الواقعية. أو الواقعية المثالية.. إنه يتعامل مع الإنسان، بما هو إنسان"[3]..

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص770.

([2]) المرجع نفسه، ج1، ص226، 238، 239، 579.

([3]) المرجع نفسه، ج2، ص769.

المبحث السادس: التيسير:

يرى سيِّد أن التيسير والتخفيف من خصائص المنهج القرآني في البناء، ويتجلى ذلك في اعتراف المنهج القرآني بفطرة الإنسان ودوافعه وطاقاته وحاجاته، وبالتالي فإنه يراعي التنسيق بين الطاقة والتكليف، فلا يفرض عليه من التكاليف إلا ما هو ميسر له وما هو داخل تحت طاقته، فالمراد من التكليف أن يؤديه الإنسان لا أن يعجز عنه[1].

وتُلاحَظ هذه الخاصية في الكثير من النصوص والتي تدل على أنَّ الله عز وجلَّ -من خلال هذا المنهج - لم يُرد العنت والشقاء لهذه الأمة؛ منها: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:286]قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:28].. كما يلاحظ أن المنهج القرآني وضع عن هذه الأمة الآصار والأثقال التي حملها على الأمم من قبل؛ قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف:157] ومن خلال هذه النصوص -وغيرها كثير -يتبين أنَّ المنهج القرآني سهل ميسر، هين لين، نابع من الفطرة[2].

فهذا المنهج إذًا سهل التطبيق والتنزيل متاح لجميع الفئات البشرية؛ لأنه يراعي فطرتهم وحاجياتهم، يقول سيِّد: "إن هذا المنهج ميسر لينهض به كل ذي فطرة سوية. إنَّه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة، التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر. وهذا الدين لم يجئ لهذه القلة القليلة. إنه جاء للناس جميعًا. والناس معادن وألوان وطبقات. من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف. وهذا الدين ييسر لهم جميعًا أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه، وأن يكفوا عن المعاصي التي نهى عنها"[3].

ومظاهر التيسير في المنهج القرآني في البناء كثيرة جدًّا؛ نذكر منها على سبيل المثال:

([1]) المرجع نفسه، ج2، ص632، 697، 698.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص345. الأشقر، **خصائص الشريعة الإسلامية**، ص69. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص177.

([3]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص697.

الرُّخَص عند قيام أسبابها؛ كالإذن في أكل الميتة عند الضرورة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل:115]. وكالقصر والجمع في الصلاة والترخيص في الصلاة قاعدًا لمن يضره القيام، وكالترخيص في التيمم عند الخوف من الضرر بسبب استعمال الماء؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:29] [1].

وزيادة على ذلك، فإن سيدًا يرى أن المنهج القرآني "أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة من المناهج التي يريدها البشر ويَهووْنها، وأنه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتًا ومشقة، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس[2].

ويرى سيِّد أن معرفة خاصية التيسير في المنهج القرآني تترك في الإنسان آثارًا جليلة، منها[3]:

-أنها تكسب الإنسان راحة وطمأنينة، وذلك حين يستشعر رحمة ربه فيما كلَّفه به، ويستيقن أنه قادر على القيام بتلك التكاليف، ما دام الله عز وجل -العالم بطبيعته وتركيبه وطاقته- هو الذي فَرَضَها عليه، فلو لم تكن في مقدوره لما فرضها عليه. وبالتالي فلا يستثقل تلك التكاليف، ولا يتبرم منها، بل تبعث في نفسه طمأنينة وأنسًا.

-أنها تشحذ عزيمة الإنسان، وتدفعها للقيام بتلك التكاليف؛ لأنه يستحضر أنه قادر عليها، فإذا حصل منه قصور أو تراجع في القيام بالتكليف عرف -يقينا -أنه بسبب ضعف فيه لا بسبب أن التكليف شاق، وهذا يستجيش همته ويرفع عزيمته للنهوض مجددًا بالتكليف ما دام داخلًا في طاقته كلما لمس في نفسه ضعفًا.

([1]) القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص179.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**،، ج2، ص619.

([3]) المرجع نفسه، ج1، ص344، 345.

المبحث السابع: الثبات والمرونة:

ومن الخصائص التي يتميز بها المنهج القرآني: الثبات والمرونة، الثبات في الأصول والكليات حيث يتخذ في بعض القضايا والمسائل -مثل قضايا العقيدة -مواقف حاسمة من اللحظة الأولى، ولا يتنازل، أو يساوم، والمرونة في الفروع والجزئيات حيث إنه في بعض القضايا -مثل العادات والتقاليد -يتريث ويتدرج برفق ولين، ويستغرق الوقت اللازم في علاجها[1]؛ يقول سيِّد: "عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني، أي: بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسمًا منذ اللحظة الأولى. ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، ويهيِّئ الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة. فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك: أمضى أمره منذ اللحظة الأولى في ضربة حازمة جازمة، لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق؛ لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام. فأما في الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة وإلف. والعادة تحتاج إلى علاج"[2].

وبعد استعراض هذه الخصائص يؤكِّد سيِّد أمرين مهمين:

أ -ضرورة رجوع الإنسان إلى المنهج القرآني في البناء والاستمداد منه في قيمه وموازينه وجميع أموره وشئونه؛ لأنه من وضع الله عز وجل الذي هو وحده أعلم بخلقه وبما يصلح لهم.

يقول سيِّد: "إن هذه البشرية -وهي من صنع الله -لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده سبحانه، وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

([1]) القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص217. قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص77، 79، 87.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص229.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:82] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:9]. ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها -ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة، وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز، ولكنها لا تُطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه؛ فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب؛ الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [المُلك:13] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك:14]. ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة؛ البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير"![1].

ب -عدم المساس به، أو التعديل عليه، أو تبديله؛ لأنَّ المنهج القرآني استقر واكتمل باكتمال هذا الدين؛ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:3]، وكلُّ تبديل فيه معصية ويعيق سيره الفعال بقدر التبديل والتحريف[2]، فإذا أراد الإنسان السعادة في حياته فعليه بالرجوع إلى المنهج القرآني، وإلا فهي الشقوة والتيه والحيرة[3]، يقول سيّد: "فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئًا إلا الفساد في الأرض، وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم، وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر، وإلا

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص15. الأشقر، **خصائص الشريعة الإسلامية**، ص35.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج3، ص1771. قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص41، 42.

([3]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص619.

عبودية الناس بعضهم لبعض، واتخاذ بعضهم لبعض أربابًا من دون الله.. وهو شر عظيم وفساد عظيم"..[1].

من خلال ما تم استعراضه يلاحظ أنَّ خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والعمران - من خلال" ظلال القرآن -"تتمحور بشكل أساسي على الفطرة الإنسانية وترجع إليها، وهذا يظهر جليًّا في طرح سيِّد من خلال عبارات كثيرة وردت في مواضع متعددة تتبين للقارئ بأدنى ملاحظة، فلكلِّ الخصائص التي ورد ذكرها صلةٌ مباشرة بالفطرة، بل يمكن القول: إن ذلك المنهج بخصائصه تلك هو ثمرة لمراعاة الفطرة وأخذها بعين الاعتبار، من خلال مخاطبتها، ومعرفة مداخلها وأسرارها، وطريقة التعامل معها في جميع حالاتها.

فمخاطبة فطرة الإنسان ومراعاتها هي التي اقتضت ذلك التدرج في المنهج؛ ليتمكن الإنسان من تطبيقه والاستفادة منه على أتم وجه، كما اقتضت أن يتعامل مع تلك الفطرة بكلِّ جوانبها وحالاتها، فأثمرت الشمول والتكامل والتوازن حتى لا يهمل أي جانب، أو يشتغل بجانب على حساب آخر، واقتضت أن يرتقي بتلك الفطرة كما هي بما جبلت عليه من ضعف وقوة، فنتجت عن ذلك خاصية الواقعية من جهة، ومن جهة أخرى نتجت خاصية التيسير والتسهيل لمعرفتها بالقدرة الحقيقة لهذا الكائن، كما أثمر الثبات والمرونة.

فمن هنا يتضح جليًّا أن مراعاة الفطرة، وأخذها بعين الاعتبار هي السِّرُّ وراء تميُّز المنهج القرآني بتلك الخصائص؛ لأن واضع المنهج القرآني هو -وحده -العليم البصير الخبير بهذه الفطرة ومداخلها. كما أنَّها سِرُّ تفوق المنهج القرآني على سائر النظم والمناهج الوضعية الأخرى التي تجهل الفطرة وأهملتها، ولم تراعها.

([1]) المرجع نفسه، ج2، ص903.

رسم توضيحي للعلاقة المحورية بين الفطرة وخصائص المنهج القرآني

الخاتمة:

توصل الباحث من خلال هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

-أن المنهج القرآني يتَّسِم بميزات وخصائص متعددة، وهي:

-الربانية: فالمنهج القرآني رباني المصدر، وضعه الله عز وجلَّ المتميز بالعلم المطلق والحكمة الفريدة، وبالتالي فإنه منهج مبرأ من كلِّ عيب ونقص.

-التدرج في التنزيل ومراعاة الظروف والإمكانيات: حيث إنَّ عملية البناء تستلزم وقتًا وتدرجًا، ومراعاة للظروف واستعداد هذا الإنسان وحاجاته، فالتغيير لا يحصل بين عشيَّة وضحاها.

-الشمول والتكامل والتوازن: يتميز المنهج القرآني بأنه شامل ومتكامل ومتوازن، فهو يشمل الإنسان كله بمختلف ظروفه وملابساته؛ فردًا وجماعة، ويشمل مجالاته الدينية والدنيوية على حدٍّ سواء، كما لا يميل إلى جهة على حساب جهة، وإنما يربط بينها في توازن وتكامل محكم التناسق.

-الدوام وصلاحه لكل زمان ومكان: فهو قادر على بناء الإنسان فردًا وجماعة في كلِّ وقت، وفي كلِّ مكان، وفي كلِّ جيل؛ لأنه يحتوي على الحقائق الدائمة والمبادئ الكلية والقيم الأصيلة والرَّصيد الصالح الذي يتزود منه في كلِّ حال.

-الواقعية: فهو يأخذ بعين الاعتبار واقع الإنسان من كلِّ جوانبه وزواياه وملابساته، كما لا يغفل طبيعة الإنسان وفطرته وتكوينه وحدوده وقدراته، فالمنهج القرآني يلاحظ كلَّ هذا، ويأخذه بعين الاعتبار، فلذلك لا يجبره على فعل أو ترك ما يعجز عن فعله أو تركه، وكلُّ ما يطلبه منه داخل في طاقته وقدرته.

-التيسير: فهو يعترف بفطرة الإنسان ودوافعه وطاقاته وحاجاته، وبالتالي فإنه يراعي التنسيق بين الطاقة والتكليف، فلا يفرض عليه من التكاليف إلا ما هو ميسر له، وما هو داخل تحت طاقته، فالمراد من التكليف أن يؤديه الإنسان لا أن يعجز عنه.

-الثبات والمرونة: ففي بعض القضايا والمسائل -مثل قضايا العقيدة -يتخذ مواقف حاسمة

من اللحظة الأولى، ولا يتنازل، أو يساوم، أما في بعض القضايا -مثل العادات والتقاليد -فيتريث ويتدرج برفق ولين، ويستغرق الوقت اللازم في علاجها.

-أن رجوع الإنسان إلى المنهج القرآني في البناء والاستمداد منه في قيمه وموازينه وجميع أموره وشئونه ضرورة ملحة؛ لأنه مِن وضع الله عز وجلَّ الذي هو وحده أعلم بخلقه، وبما يصلح لهم.

-أنَّ المساس بالمنهج القرآني، أو التعديل فيه، أو تبديله يُعتبر جريمة كبرى؛ إذ ينتج عن ذلك فساد كبير.

-أنَّ خصائص المنهج القرآني تتمحور بشكل أساسي على الفطرة الإنسانية وترجع إليها، وهو سِرُّ تميُّزه وتفوقه على سائر النظم والمناهج الوضعية الأخرى.

التوصيات:

يُوصي الباحث في نهاية هذه الدراسة بما يلي:

-القيام بدراسات تتناول بعمق وتفصيل منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان والعمران.

-مراعاة خصائص المنهج القرآني في البناء عند صياغة البرامج التربوية والتكوينية التي تُوضع لمختلف الفئات والمجالات.

-كتابة دراسات حول خصائص المنهج القرآني في البناء من خلال كتب تفسير أخرى.

-القيام بدراسات مقارنة بين خصائص منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان والعمران وخصائص المناهج الأخرى.

قائمة المراجع

-إبراهيم مصطفى، أحمد الزَّيَّات، حامد عبد القادر ومحمد النَّجار،(1985)، **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية،(ط1). القاهرة: دار الدعوة.

-الأشقر، عمر سليمان،(1982)، **خصائص الشريعة الإسلامية**. الكويت: مكتبة الفلاح.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح،(1421هـ،2000م)، **المنهج الحركي في ظلال القرآن**،(ط2). عمان: دار عمار.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح،(1421هـ،2000م)، **في ظلال القرآن في الميزان**،(ط2). عمان: دار عمار.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح،(1421هـ،2000م)، **مدخل إلى ظلال القرآن**،(ط2). عمان: دار عمار.

أبو دف، محمود خليل،(1423هـ،2002م)، **معالم الفكر التربوي عند سيِّد قطب من خلال تفسيره في ظلال القرآن**. غزَّة: الجامعة الإسلامية.

الزمخشري، جار الله،(1419هـ،1998 م)، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود،(ط1). بيروت -لبنان: دار الكتب العلمية.

العماري،(د.ت)، **من حديث القرآن عن الإنسان**. سلسة دعوة الحق، العدد.22

ابن فارس، أحمد بن زكريا،(1399هـ،1979 م). **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الفكر.

الفيروز آبادي، مجد الدين، أبو طاهر؛ محمد بن يعقوب،(1426هـ،2005 م)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي،(ط8). بيروت -لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنَّشر والتوزيع.

القرضاوي، يوسف،(1404هـ،1983 م)، **الخصائص العامة للإسلام**. بيروت: مؤسسة الرسالة.

قطب، سيِّد،(1434هـ،2013م)، **في ظلال القرآن**،(ط40). القاهرة: دار الشُّروق.

قطب، سيِّد،(1997م)، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**. القاهرة: دار الشُّروق.

القيق، وجيه صبح محمود،(1427هـ،2006م)، **معالم التغيير عند سيِّد قطب من خلال كتاباته**. غزَّة: الجامعة الإسلامية.

محمد نصير، آمنة،(1409،1989)، **إنسانية الإنسان في الإسلام**، القاهرة: دار الشروق.

ابن منظور، محمد بن مكرم،(د.ت)، **لسان العرب**،(ط1). بيروت: دار صادر.

المواقع الإلكترونية:

http://www.alukah.net/spotlight/0/89258/#_ftn3